

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

بِنَى الْحِجَاة فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ دراسة لسانية

أطروحة تقدّم بها الطالب

علي عبد الوهاب عباس

إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية
وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه/فلسفة
في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتور

عبد الإله إبراهيم عبد الله

٢٠١٣م

بغداد

١٤٣٤هـ

الخاتمة

بحث الأطلوحة لسانيات الحجاج في أهم خطاب في تراثنا الفكري بعد القرآن الكريم، والخطاب النبوي الشريف؛ فدرست آليات الحجاج في نهج البلاغة عبر محوريه، اللغوي، والفكري، فكان أن تناولت بالبحث مستويين من مستويات الدرس اللساني في الخطاب الحجاجي، هما: المستوى النحوي، والمستوى التداولي، ووقفت على عناصر رئيسة فيهما، ثم بحثت قضية تعد من أهم ما طرحه (برلمان) في نهضة الحجاج، وهي المنطلقات التي ينطلق منها الخطيب في محاولته إقناع الجمهور بما يطرحه من أفكار، ونستطيع أن نجمل النتائج بما يأتي:

١. دراسة أي خطاب حجاجي تقوم على محورين لا يصح أن يُغفل أحدهما، هما المستوى اللغوي، والمستوى الفكري؛ فالطاقة الحجاجية للخطاب يتماهى فيها الحجاج المؤسس على البنية اللغوية للنص مع مقدمات الحجاج التي تدل على قوته في إقناع الجمهور، وبذلك تمت دراسة هذين المستويين في حجاج نهج البلاغة.

٢. يتصف خطاب النهج بظاهرة تميّزه من سائر النصوص في تراثنا، هي تضمنه أهم نمطين لاستعمال اللغة يقربان من الوجدتين الحجاجيتين الرئيسيتين اللتين أشار إليهما أرسطو في بحثه آليات الإقناع، وهما: الخطب، والمناقشات الجدلية؛ فقد تمثلت الخطب بكلمات الإمام (ع) للجمهور المتلقي للحجاج، أمّا كتب الإمام ورسائله فتقرب من المناقشات الجدلية.

٣. كلمات الإمام (ع)، وكتبه محل الدراسة الحجاجية لا تتوقف عند حوار أعدائه (ع)، بل تتجاوز ذلك إلى حجاجه أتباعه؛ فالحجاج في الدراسات الحديثة يعني الحوار الإقناعي وهذا الحوار لا يختص بالأعداء بل يتعلق فضلا عن ذلك بالأتباع؛ لأن الإمام (ع) في كلا الحالين يناقش أطلوحة ما مستهدفا إمّا تثبيتها وإمّا نقضها وترسيخ أخرى، ولا يجعل اهتمامه ينصب على الجمهور أو الشخص المتلقي إلا بالمقدار الذي يقتضيه المقام، فحتى في الحجاج الموجّه إلى أتباعه أو الجمهور (المحايد) كان يتصدى لما يطرحه الآخرون من أفكار، أو يؤسس لأطروحات تتعلق بالحكم أو علاقة الإنسان بربه وبالمجتمع الذي يعيش فيه، فهذه المباحث كلها تدخل في صميم عملية الحجاج، والحجاج بهذا المفهوم هو أوسع نظرة من الجدل المختص بالخصومة .

٤. مفهوم الحجاج في الدراسات الحديثة يختلف عما نجده عند القدماء؛ فقد ترادف عندهم مع (البرهان)، و(الجدل) وهذان المفهومان غالبا ما وظفًا وهما يحملان مصطلح (الحجة) في حوار الآخر المخالف أو المعادي أحيانا، لكننا نجد الدراسات الحديثة قد أثبتت أنّ الحجاج هو حوار يستهدف إقناع المتلقي سواء كان مخالفا أم محايدا أم من مؤيدي الخطيب؛ فلم يعد مفهومه يرادف (الجدل) أي (شدة الخصومة) بل اتسع ليشمل مختلف أنواع الحوار مع الآخر، وكذلك الحال مع مفهوم (البرهان) الذي يُعنى بالضروريات بخلاف (الحجاج) الذي يتسع ليشمل (الممكن) وبذلك ينحصر مفهوم (البرهان) بالعلوم التطبيقية أمّا مفهوم (الحجاج) فمجاله العلوم الإنسانية فضلا عن العلوم التطبيقية، ويقوم (الحجاج) على ذكر الأمثلة التي تؤسس للواقع الذي يريده الخطيب بخلاف (البرهان) الذي يبتعد عن ذكر الأمثلة ويقوم على الاستنباط، و(الحجاج) يرتبط بالذات الإنسانية وبمقام الخطاب على نحو كبير بخلاف (البرهان) الذي يستقل عن ذات المتكلم والمخاطب ومقام التفظ وهو بذلك قوانين عامة.

٥. الخطابة القديمة تختلف عن (الحجاج) في أنّ هدفها الإقناع بكل الوسائل حتى المغالطة السفسطائية منها، ولصورة الخطيب أثر مهم في عملية الإقناع، والجمهور خاص في الخطابة القديمة وليس جمهورا كونيا مثلما نجد ذلك في الخطابة الجديدة (الحجاج)، والجمهور (سلبى) فهو لا يتفاعل مع الخطيب بل يتلقى الأطروحة منه بخلاف الجمهور المخاطب بالحجاج فهو (إيجابي) متفاعل؛ فقد يجيب عن تساؤل يطرحه الخطيب أو يتساءل فيجيب الخطيب؛ واقتترنت الخطابة القديمة بالسفسطة التي ترى أنّ الإنسان هو المقياس فلا خير أو شر إلا ما يتعلق بملذات الإنسان ومصالحه، فحاول الفلاسفة الردّ على مغالطاتهم وبيان أوجه الخطأ في أقيستهم التي توهم الجمهور وتظللّه والتي ترجع في جانب كبير منها إلى ما تحدّثه الألفاظ في المعاني من لبس وغموض نتيجة لاشتراك معاني مختلفة في لفظ واحد؛ إذ يستعمل السفسطائي دلالة من هذه الدلالات ليؤسس عليها خطابه المغالطي فضلا عن توظيف التركيب النحوي للجملة بما يخدم تلك المغالطات .

٦. نهوض الخطابة الجديدة (الحجاج) كان بعد تقلص دورها عبر العصور بسبب (اليقينية) التي سيطرت على طرق التفكير ولاسيما العلوم الإنسانية؛ لأن الاعتقاد باليقين قضى

على مساحة الحوار وإبداء الآراء، فلا صوت مقابل ما يُعتَقَد أَنَّهُ الحق، وانشغلت الدراسات وولاسيما اللغوية منها على مدى القرون التي ضَعُفَ فيها دور الخطابة بالبحث في أسلوبية النص وعناصره اللغوية من غير أن تتجاوز ذلك إلى البحث في حاجيته، والنتيجة المطلوبة منه، ودور البناء اللغوي في تماسك النص بما يتضمنه من أفكار تؤدي إلى إقناع الجمهور؛ إذ لا يستطيع الخطيب أن يقنع الجمهور بفكرة ما من غير أن يسوقها في خطاب متماسك.

٧. ظهور الخطابة الجديدة (الحجاج) كان بجهود (برلمان)، ومفهومه الحجاجي هو الأساس الذي انطلقت منه مفاهيم الحجاج الأخرى وإن كانت تعالج فكرة (الحجاج) بطرق مختلفة، وقد طرح (برلمان) مفهوم (المنطق غير الصوري) الذي يأخذ بالحجج سواء القوية منها أم الضعيفة، والنتائج المطلوبة منها، وطريقة بناء الخطاب الحجاجي في مقابل (المنطق الصوري) المبني على نتائج تدل عليها مقدمات خاصة في جمل مستقل بعضها عن بعض فلا يوجد خطاب يتضمن مقاما خاصا به، وسلسلة جمل متتابعة ضمن الدراسات المنطقية، وقد اقترح فلسفة اللغة الطبيعية بدلا من اللغة المنطقية، ومن أهم ما قدمه (برلمان) هو إعادة شمل (الحجاج) بعد أن توزع على مباحث (الفلسفة، والجدل، ونظرية الأدب)، فقد جمع هذه الأقسام الثلاثة ضمن مفهوم (الحجاج) مع اهتمام خاص بـ(اللوغوس) الذي يتعلق بما يُطرح من أفكار عبر النص لإقناع الجمهور.

٨. من أهم ما طرحه (برلمان وتيتيكاه) هو دراسة منطلقات الحجاج؛ والمنطلقات فكرة مشتركة بين أفراد الجماعة التي ينتمي لها الخطيب، وأهم المنطلقات هي (الوقائع، و الحقائق)، ويكتسب هذان المنطلقان أهميتهما من كونهما غير قابلين للدحض والتشكيك؛ لأنَّ (الوقائع) أحداث وقعت في المجتمع، و (الحقائق) قوانين يؤمن بها أفراد المجتمع، وتأتي (الافتراضات) في سياق (الحقائق، والوقائع) لتقوية الحجاج، وقد بحث (برلمان) فضلا عن المنطلقات تقنيات عرض الحجج من طرق شبه منطقية، وأخرى مؤسّسة لبنى الواقع، ومؤسّسة عليه، ويعد (التشبيه التمثيلي) أقرب قسم من أقسام (التشبيه) إلى مفهوم (التمثيل) الذي ذكره (برلمان).

٩. مفهوم الحجاج عند (ديكرو) يقع في صميم الدراسات التداولية، ولسانيات الخطاب، لأنه بحسب ما أرى يرتبط بهذه الدراسات بثلاثة محاور رئيسة، الأول دراسته الألفاظ الحجاجية ولاسيما الروابط التي تربط بين الجمل في الخطاب والتي تكون حججا أو حجبا ونتائج ودراسة نظام الربط النحوي هي إحدى أسس لسانيات النص، والمحور الثاني تأثره بنظرية الأفعال الكلامية وقد طرح في سياق ذلك وجود فعلين أو حدثين ينجزان في عملية الحجاج هما (حدث الاقتناع)، و (حدث الاقتضاء)؛ فالحدث المنجز عبر عملية الحوار بين الخطيب والجمهور هو الاقتناع بما يُطرح من أفكار وفي الوقت نفسه يقتضي الخطاب دلالة معينة تتجز عند طرحه، أمّا المحور الثالث فكان طرح (ديكرو) لمبدأ (التداولية المدمجة) وهذا المبدأ يؤمن باندماج المستوى التداولي بالمستوى الدلالي، ومشروع (ديكرو) يمثل حالة وسطى بين اتجاهين في الدراسات اللسانية الأولى دلالي يرفض عدّ السياق عنصرا من عناصر بيان دلالة النص ويكتفي بالدلالة الوضعية للألفاظ، والثاني يعدّ مقام الخطاب وسياقه محورا رئيسا في بيان دلالة النص؛ ف(التداولية المدمجة) بحسب مصطلحها تعني اندماج دراسة التداولية مع الدلالة أي الأخذ بمقام التلفظ والسياق في توجيه دلالة اللفظ ضمن الخطاب الذي يرد فيه.

١٠. مفهوم (مايبر) متأثر إلى حد كبير بما طرحه (برلمان) من خلال الحديث عن المنطق غير الصوري واهتمامه بالركائز الفكرية للحجاج، ويقوم هذا المفهوم على حركة (السؤال والجواب) أساسا في الحجاج سواء في عنصر الجدل أم الخطابة، وقد عبّر عن (الجواب) بـ(المظهر)، و(التساؤل) بـ(المضمّر)، وهذا التقسيم ينطلق من فرضية كون الخطاب (إخباريا) غير مبدوء بأداة (سؤال)؛ فإن كان الخطاب تساؤلا سيكون ذلك التساؤل هو الجانب (المظهر) من الخطاب، و(المضمّر) هو الإجابة عنه؛ وتبقى هذه الثنائية موجودة حتى فيما يتعلق بالنصوص التي تتضمن التساؤلات والإجابة عنها؛ فالمضمّر فيها هو الإقرار والعمل بموجب ذلك الإقرار.

١١. الشروط التي ذكرها اللسانيون للوقوف على حجاجية النص تتطابق على نحو كبير مع خطاب نهج البلاغة ولاسيما الخطب والكتب؛ فالإمام انطلق من مقتضيات الحال ومن المعارف المشتركة في محاولته إقناع الجمهور واستعمل أدوات اللغة بما

يخدم هذا التصور، وبناء على ذلك كانت الألفاظ المستعملة ذات دلالة واضحة يفهمها الجمهور، وليست من قبيل المشترك اللفظي لأنه يفقد الخطاب طاقته الحجاجية، كما إن من صفات الحجاج الناجح هو الادعاء بالحقيقة وتقديم الأدلة التي تدعم ذلك الادعاء، لذلك كان حجاج الإمام(ع) يتصف بالقوة في اعتماد أقوى المنطلقات، فضلا عن اتصاف الحجاج في نهج البلاغة بأهم صفات الخطاب الحجاجي، وهي خاصية التفاعل التي تنتج عن مبدأ الادعاء والاعتراض؛ فالإمام(ع) كان في مواطن متعددة من حجاجه يفترض بعض ما يطرحه الخصوم في(تزوج) في ذات الخطيب المحاجج بين ذات المتكلم، والمخاطب؛ فكان(ع) يطرح ما يريده من أفكار ثم يشير إلى أهم ما يمكن أن يكون معارضا لما يطرحه عندما يقتضي مقام الخطاب ذلك ثم يجيب عن تلك الافتراضات(ع)، ومن أهم الصفات التي يتصف بها خطاب النهج قيام(الحجاج) فيه على عنصر(الالتباس) بين(واقع) اللفظ أو دلالاته الوضعية، و(قيمة) التلفظ به في مقام الخطاب، وهو ما يعني استلزام اللفظ دلالة تتناسب حجاجية الخطاب وفي الوقت نفسه تنطلق من الدلالة الحرفية للفظ؛ فالمعرفة ب(واقع اللفظ) تعني إدراك دلالاته الحرفية والاشتغال ب(القيمة) التي يحملها ذلك الملفوظ؛ فهناك تداخل كبير بين ذكر اللفظ بما يحمله من دلالة حرفية، وما يقصده الخطيب من معني حجاجي هو ما عبر عنه طه عبد الرحمن ب(العلم بالحقائق، والعمل بالمقاصد)؛ فالحجاج في النهج اتصف بالالتباس الذي درسته في ضوء نظرية الاستلزام الحواري، كما اتصف حجاج النهج باستهداف اعتقاد الجمهور بصفات الحكم ووظائف الحاكم ولاسيما أن من سبق الإمام(ع) في الخلافة ابتعد عن المنهج الذي اتبعه النبي(ص) في توزيع الثروات على الرعية فضلا عن استهداف اعتقاد الجمهور بما يطرحه خصومه(ع) من أفكار، أو بما يخاطب به الجمهور الكوني ويضمنهم ولاة الأمور واضعا أسس العدالة في الحكم.

١٢. دراسة مستويات اللغة وولاسيما النحوية، والتداولية في الخطاب الحجاجي ينبغي أن لا تُغفل دراسة(مقتضى النص)، وهذا مما طرحه(ديكرو) الذي أشار إلى أن تحليل مقتضى الخطاب يتزامن مع البحث في حجاجيته، وقد سبق علماءنا القدماء المحدثين في الوقوف على أهمية مقتضى النص عندما تصدوا لتحليل الخطاب

القرآني وبيان دلالاته؛ ومن أهم ما تقف عليه دراسة الخطاب الحجاجي فضلا عن المقتضى دراسة (المفهوم الدلالي) منه، ومن خلال التعريف الذي ساقه علماء الأصول للمفهوم يتبين أن دلالة اللفظ هي معناه، أما صورته في الذهن فهي (المفهوم)، وبذلك نرى أن النتيجة المطلوبة من (الحجاج) تعدُّ المفهوم الدلالي منه؛ لأنَّ النتيجة لا بد أن تحصل صورتها في ذهن المتلقي، وهذا يعني أنَّ وجود (مقتضى النص) يسبق وجود المفهوم لأنَّ المقتضى يولد مع النص أمَّا المفهوم فيرتبط بحصول صورته في ذهن المتلقي؛ وهذا يستلزم قيام دراسة الحجاج على (المقتضى، والمفهوم) .

١٣ . دراسة الأدوات النحوية في الخطاب الحجاجي تشتمل على مستويين: الأول يتعلق بدراسة عوامل الحجاج التي ترسخ المفاهيم التي يطرحها الخطيب، والآخر يتعلق بدراسة الروابط النحوية بين أركان الخطاب الحجاجي كالربط بين الحجج أو بين الحجج والنتائج مما يؤسس لـ (العلاقات الحجاجية)، نحو: التتابع، والسببية، والاستنتاج، ولا يصح إغفال أحد هذين الجانبين؛ لأنَّ التراكيب النحوية إنما تتأسس على ما يتصدر الجملة من أدوات، وفي الوقت نفسه يحكم الخطاب الحجاجي بمجموعة من العلاقات تقوم هي الأخرى على أنماط معينة من الأدوات؛ ورصد أثر الدلالة المرتبطة بالخطاب الحجاجي للأدوات هو مما اقتصت به لسانيات الحجاج؛ فقد انفردت بالبحث في تلك الدلالات على الرغم من أنَّ لسانيات النص قد تناولت الربط النحوي بأنماطه المختلفة ومنها الربط بالأدوات إلا أنَّها لم تنبه لاستعمالها في الحجاج، ويبدو أنَّ سبب ذلك هو عدم اتضاح مفهوم الحجاج عند الباحثين في لسانيات النص وهو ما استدعى البحث في دلالة الروابط في الحجاج.

١٤ . عوامل التوكيد الحجاجية كانت من أهم الوسائل التي استعملها الإمام في ترسيخ أطروحاته، وكان التوكيد بالأداة (إنَّ) سمة بارزة في التوكيد، وقد وردت في سياقها (فاء السببية) التي تمثل إحدى أهم الروابط الحجاجية وترد في الخطاب الحجاجي بين النتيجة المتقدمة، والحجَّة المتأخرة، كما وردت في سياق التوكيد (فاء الاستنتاج) وهي بخلاف رابط السببية تتقدم الحجَّة فيها وتدخل الفاء على النتيجة المطلوبة، ووردت (ألا) التي تفيد التنبيه والتوكيد داخلة على (إنَّ) في سياقات خاصة

مبالغة منه (ع) في توكيد المفاهيم التي يطرحها، ومنها توكيده زهده في ملذات الدنيا وولاسيما الخلافة، ومنها ترسيخه فكرة وجوب مواجهة الشيطان الذي جمع أتباعه لمحاربة الإمام (ع).

١٥. من أدوات توكيد الخطاب الحجاجي (قد)، وورد في سياقها في بعض الأمثلة ما يعرف بـ(التوازي التركيبي) وهو من صور (السبك أو الربط) النحوي، وفيه تُستعمل صيغة الجملة نفسها مع تغيير محتواها الدلالي، وهذا القسم من أقسام (الربط) يوظف أثر الصيغة في إقناع المتلقي لما لنعمة الصوت المرتبطة بتكرير البنية النحوية من تأثير، واقتترنت (قد) بـ(اللام) في بعض النصوص، ومن عوامل التوكيد الأخرى (نون التوكيد) التي وردت بكثرة في وصيته لعماله على الصدقات، وفي وصيته للحسن (ع) لتعلق هذين الخطابين الحجاجين بما يقع مستقبلا، كما احتل توكيد المفاهيم الحجاجية بالقسم مساحة مهمة من أنماط التوكيد؛ ويرتبط التوكيد بالقسم بنظرية (أفعال الكلام) على نحو كبير؛ فالبلاغيون العرب وإن كانوا قسّموا تركيب القسم على خبري وإنشائي إلا أنّ رصد سيبويه لاستعمالات القسم يشعر أنّه يميل إلى كونه طلبيا، وهو ما ترسّخ في لسانيات الحجاج التي ترى أنّ استعمال اللغة يعني انجاز فعل الإقناع، وبذلك يكون (القسم) انجازا لحدث وليس إخبارا عنه، وكان القسم بالحرف مع المقسم به (لفظ الجلالة) أبرز صور القسم كما ورد القسم بالجملة الفعلية (أقسم) وقد اقتترنت بالمقسم به مبالغة في حجاجه مع دخول (إنّ) المؤكدة على جملة القسم في مواضع معينة؛ لتأكيد ما يوصي به (ع) ولاته من حرمة خيانة الرعية.

١٦. اقترن القسم بالشرط في حجاج الإمام وقد كان الجواب للشرط في موضع من تلك المواضع بخلاف ما نصّ عليه النحاة من أنّ الجواب للقسم المتقدم؛ ويبدو أن مقام الخطاب اقتضى كون الجواب للشرط لا للقسم لما يضيفه تركيب الشرط من معنى جديد للخطاب، ومن أهم أنماط توكيد الخطاب الحجاجي التوكيد بالقصر وأهميته تكمن في توجيه المتلقي للإقرار بالنتيجة التي يريدها الخطيب وذلك بحصر دلالة الجملة على المعنى المطلوب، وما ذكره علماءنا من فرق بين استعمال (إنما)، و(الفي، وإلا) وجدناه واضحا في خطاب النهج وهو مما يؤشر عمق تحليلهم لأنماط

التوكيد بالقصر، واستعمال (إنما) كان فيما لا ينكره المخاطب سواء كان ممن يتبع الإمام أم ممن يعاديه؛ فالهدف هو تنبيهه لأمر مقتنع به، أمّا استعمال (النفى، وإلا) فكان في الحجاج الموجّه إلى الجمهور الذي يعارض ما يطرحه الإمام (ع) من أفكار؛ فالجمهور وإن كان ممن يعدُّ من أتباع الإمام إلا أنّه ليس بالضرورة ممن يعتقد على نحو مطلق بأطروحاته (ع)، وفي كلا النمطين كانت وظيفة التوكيد بالقصر حصر دلالة الخطاب بالمفهوم الدلالي من الحجاج.

١٧. من الأدوات التي أسست الخطاب أدوات (التساؤل) التي يعبر عنها في تراثنا اللغوي بأدوات الاستفهام، ومصطلح (المساءلة) أقرب من الاستفهام إلى مضمون الحجاج؛ فد (التساؤل) مفهوم بدأ يشيع في الدراسات والمقالات التي تُعنى بعرض الأفكار ومناقشتها، وتنبّه أبو هلال العسكري إلى الفرق بين (الاستفهام) و (السؤال)؛ فالتساؤل يكون عن علم أحيانا أمّا (الاستفهام) فحقيقته لمن يجهل الشيء فيستفهم عنه، ولا داعي لتأويل (الاستفهام) بكونه غير حقيقي أو مجازي، بل نستعمل مصطلح (التساؤل) ليكون المصطلح أكثر تطابقا مع المفهوم، وصيغة (الاستفهام) في حد ذاتها تعني طلب الفهم بخلاف صيغة (سأل) التي تعني (الطلب) مطلقا، ولا يخفى أنّ جوهر عملية الحجاج يقوم على طلب الاقتناع بالفكرة التي يطرحها الخطيب، وقد ارتبط مفهوم الحجاج قديما وحديثا بحركة (السؤال والجواب)؛ فاستعمال اللغة تعبير عن (إشكالية) ما أو هو جواب عن (إشكال) مطروح، ومفهوم (مايبر) انطلاقا من هذه النظرة يدرس جميع أنواع النصوص من خبرية وإنشائية، وخصصت النصوص الحجاجية المبدوءة بأدوات (المساءلة) بالبحث؛ فالإشكال يتمثل بما يطرحه الإمام، والجواب كان إقرار الجمهور بالنتيجة التي يريدها الإمام.

١٨. التساؤل بالهمزة كان سمة غالبية في حجاج النهج؛ لإقرار جمهور المتلقي بما يطرحه (ع) من أفكار ولاسيما عند دخول الهمزة على أداة نفي، ومن أدوات المساءلة (هل)، وقد أفادت معنى (التقرير) الممتزج بالتوبيخ في مواضع الحجاج خلافا لما ذكره سيبويه وجمهور النحاة من أنّها لا تفيد معنى الإقرار؛ فطاقتها الحجاجية تأتي من حملها المتلقي على الإقرار بما يُطرح، ومن أدوات المساءلة الحجاجية (ما) التي تساءل بها عن صفات من يستحق أن يكون مؤهلا لتقويم حركة الإمام (ع)،

ووردت أدوات أخرى للمساءلة تأسست عليها حجاجية الخطاب؛ فقد انطلق الإمام(ع) من الدلالة التي تحملها تلك الأدوات في بناء حجاجية الخطاب، إذ تنوعت تلك الأدوات تبعا لما يقتضيه مقام الحجاج من استعمال أداة مساءلة بعينها؛ فمنها ما دلَّ على(المكان) محل الإشكال، ومنها ما دلَّ على(الحال) التي استوجبت المساءلة ومنها ما دلَّ على(الزمن) الذي أراه الإمام من الحجاج، وغير ذلك من أدوات المساءلة التي أنجز بها حدث الإقناع ولاسيما أنَّ نظرية الانجازيات عدت(الاستفهام) حدثا منجزا فضلا عن الحجاج .

١٩. من الأدوات التي تأسست عليها حجاجية الخطاب أدوات الشرط التي تعرف في الدراسات الحجاجية بروابط الاقتضاء، أي يقتضي فيها الشرط وجود جواب له، وهذا التلازم بين ركني جملة الشرط دفع بعض النحاة إلى القول بأنَّها جملة واحدة؛ فلا معنى لأحدهما بمعزل عن الآخر، وانطلق هؤلاء العلماء من فكرة كون الإفادة شرطا رئيسا للجملة التي هي عندهم بمعنى الكلام؛ فلا تتحقق الإفادة في تركيب الشرط إلا باجتماع ركنيه(الشرط، والجواب)، ومن رفض الترادف بين مصطلحي(الكلام)، و(الجملة) لم يشترط الإفادة في الجملة، فلم يجد بناءا على ذلك مانعا من عدَّ كلَّ من الشرط والجواب جملتين تستقلُّ كل واحدة منهما عن الأخرى، وعدم التفريق بينهما يمثِّل التوجُّه الصحيح لدراسة الخطاب ولاسيما الحجاجي؛ فتركيب الشرط يدخل بجزأيه في الحوار الإقناعي ولا نستطيع فهم(الحجاج) من دون النظرة الكاملة لقسمي الجملة؛ إذ يمثلان جانب(الحجَّة) التي تخدم المفهوم الدلالي(النتيجة).

٢٠. اتصف تركيب الشرط في الخطاب الحجاجي بأنه مثَّل حجَّة تخدم نتيجة مضمرة أو مذكورة في النص نفسه؛ ففي مواضع كثيرة كان النص المؤسَّس على روابط الشرط نصًّا حجاجيا في مجمله ويخدم مفهوما دلاليا، ومن تلك الأدوات التي يبنى عليها الشرط(إذا) التي دخلت على ضمير رفع منفصل بخلاف ما اشترطه النحاة من دخولها على فعل، ويبدو أنَّ التقديم كان لغرض توكيد المفهوم المقتضي للجواب الذي سيق من أجله النص في محاولة إقناع المتلقي، ومن تلك الأدوات(لو) التي وردت بدلالة تخالف ما نصَّ عليه بعض النحاة من كونها لتعليق الجواب في الماضي فجاءت لتعليق الجواب في المستقبل في أمثلة متعددة.

٢١. في مقدمة ما طرحته لسانيات الخطاب دراسة المستوى التداولي، وترتبط الدراسة الحجاجية لخطاب ما بدراسة المنهج التداولي على نحو وثيق؛ لأنَّ الحجاج يُعنى بدراسة مقام الخطاب وأثره في استعمال الألفاظ بدلالات خاصة وهو ما قدّمته دراسات (الاستلزام الحواري) فضلا عن أنّ من أهم ما طرحه (ديكرو) في مشروعه ترسيخ حجاجية النص بما فيه من أدوات (العوامل والروابط الحجاجية)؛ فالتداولية المدمجة ترفض التعارض بين الدلالة الحرفية للفظ، ومعنى التلّفُظ به في سياق ما .

٢٢. ما قدّمه مفهوم (الاستلزام الحواري) من رؤية الانطلاق من المعنى الحرفي أو الدلالة الوضعية للوصول إلى الدلالة المستلزمة سبقته بحوث (الحقيقة والمجاز) في البلاغة العربية إلا أنّ ما يميز دراسة مفهوم (الاستلزام الحواري) هي النظرة المعاصرة لمعالجة قضية دلالة اللفظ على معنى مرتبط بالمقام؛ إذ تتصف هذه النظرية بأنّها بنيت على مبدأ (التعاون) الذي يقدّم فرضية مهمة تتعلق بإبلاغ المتكلم المخاطب معنى معينا في الوقت نفسه يبذل المخاطب الجهد اللازم للتعرف على قصد المتكلم من الخطاب.

٢٣. دراسة (الاستلزام الحواري) ترتبط على نحو وثيق بدراسة الأفعال الكلامية؛ لأنَّ (الأفعال الكلامية) كانت المهاد الذي انطلقت فيه دراسة ظاهرة (الاستلزام الحواري)؛ فالعلماء الذين بحثوا في هذين المفهومين التداوليين كانت جهودهم تتقارب في إطارها العام وتختلف في التفاصيل؛ فقد ترابطت جهودهم في تحليل الخطاب، ودراسة الغرض الحقيقي من التواصل، والفرق بين ما يقال وما يتم إبلاغه المتلقي، وكانت جهود (أوستن) في دراسة الفعل الكلامي وأقسامه هي الأساس في الدراسات التي قدمها (سيرل)، و (غرايس)؛ فهما وإن قدّما مقاربتين تختلف كل واحدة منهما عن الأخرى في المسائل الإجرائية إلا أنّهما تتفقان في الغرض الرئيس وهو تفسير دلالة النص على معنى غير المعنى الحرفي للنص، وهذا التقارب بين الجهدين يدل على انبثاق مفهوم (الاستلزام الحواري) من مفهوم (أفعال الكلام) .

٢٤. أشار (غرايس) إلى وجود معنيين للألفاظ في الخطاب، أحدهما المعنى (الحرفي)، والآخر المعنى (الضمني)، والمعنى الضمني هو المقصود بدراسة (الاستلزام الحواري) وخروج دلالة اللفظ من معناها الحرفي إلى المعنى المستلزم من أهم خصائص

الخطاب الحجاجي، وقد رصد ذلك الأستاذ (طه عبد الرحمن) الذي بحث الترابط بين مفردات (الخطاب، والحجاج، والمجاز)؛ فالمجاز عنده هو القيمة التي يحملها استعمال لفظ ما؛ لأنَّ العلاقة بين (اللفظ)، و(قيمته) هي علاقة (العبرة) بـ(الإشارة)، وهذا الأمر يشير إلى أهمية دراسة الحجاج على وفق المفاهيم التداولية وولاسيما مفهوم الاستلزام الحواري .

٢٥. نشوء ظاهرة الاستلزام الحواري يرتبط بخرق القواعد المتفرعة من مبدأ التعاون، وهي قواعد: (الكم، والقيمة أو الكيف، والعلاقة أو المناسبة، والطريقة أو الصيغة)؛ ولأهمية دراسة الاستلزام الحواري بحسب مفهوم (غرايس) وقفت على أمثلة متنوعة من الحجاج العام والخاص؛ لتحليلها على وفق ما تضمَّنته من خرق لمبدأ التعاون معتمدا التقسيم الذي طرحه (أرسطو) في دراسة أنماط الصناعة القولية من خطب ومناقشات جدلية بوصفه الأقرب إلى نمط الخطاب في نهج البلاغة وبخاصة قسّمي الخطب والكتب، ودرست توظيف الألفاظ بدلالاتها المستلزمة في الحجاج، ففُسِّمت تبعا لذلك دراسة ظاهرة (الاستلزام الحواري) على محورين الأول يبحث في منطلقات الحجاج في الخطاب العام، والثاني يبحث في منطلقات الحجاج في الخطاب الخاص؛ ومع أنّ مفهوم (برلمان وتيتيكاه) يرى أنّ الفصل بين هذين النمطين الحجاجيين أمر مغلوط إلا أنّه لا يمكن التسليم بذلك الرفض؛ لأنَّ الدراسات الحجاجية قد نصّت على جملة فروق جوهرية بينهما أهمها أنّ مهمة الحجاج الجدلي هو (فحص الفكرة) وتقليبها على وجوه متعددة لبيان صلاحها، أمّا الحجاج الخطابي فهو حجاج (بيني الفكرة) ويرتبط بحركة المجتمع المتلقي سياسيا وفكريا.

٢٦. الاستلزام الحواري في الحجاج الموجّه إلى جمهور عام نشأ في معظم الحالات بخرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) التي تنصُّ على تجنب اللبس والغموض في الكلام، و اللبس المقصود هنا هو من قبيل المشترك اللفظي، أو الغموض التركيبي الذي يقبل أكثر من تأويل؛ لأنَّ ذلك يدخل في باب المغالطات السفسطائية والتلاعب بالجمهور أمّا (الحجاج) فيقوم على (الالتباس) في مستويات متعددة منها التباس شخصية المدعي بالمعترض على الفكرة المطروحة، والتباس الدلالة الحرفية لبعض الألفاظ بمعطيات المقام مما ينتج الدلالة المستلزمة، أي عبارة اللفظ، وإشارته، وهذا التوجّه

لتفسير قيام ظاهرة الاستلزام الحواري على التداخل بين الدلالة الحرفية ومقاصد التلفظ يمثل دليلا على ارتباط هذه الظاهرة بمفهوم (التداولية المدمجة) التي ترفض الفصل بين الدلالة الحرفية للفظ، وقصد التلفظ به في مقام خاص.

٢٧. الاستلزام الحواري في الحجاج الموجّه إلى جمهوره الخاص تضمّن خرقا متنوعا لمبدأ (التعاون)؛ فقد وردت نصوص حجاجية موجّهة إلى أعدائه ولاسيما معاوية وجمهوره خُرقت فيه قاعدة (العلاقة أو المناسبة)، وقد وردت نصوص أخرى جرى فيها خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة)، وقاعدة (العلاقة)، وقاعدة (القيمة أو الكيف)، وهذا يدل على اهتمام الإمام (ع) بتوظيف طرائق متعددة في استلزام حوار الدلالات المطلوبة؛ فقد اعتمد (ع) الحجاج في مواجهة معاوية وجمهوره ولم يلجأ إلى السيف معهم إلا بعد أن ينس من إقناعهم، ومع تنوع أنماط الاستلزام الحواري إلا أنّ خرق قاعدة (الطريقة أو الصيغة) كان حالة عامة في معظم الأمثلة التي درستها، وذلك يعود إلى أهمية عنصر (الالتباس) في خلق طاقة النص الحجاجية، والإمام (ع) لم يجعل كلامه مباشرا بل عمد إلى استعمال ألفاظ لها دلالات حرفية تستلزم دلالات أخرى عند استعمالها في مقام خاص.

٢٨. دراسة المنطلقات في الخطاب الحجاجي تجعلنا نقف على أهم ما يميز الخطاب الذي يُدرّس من غيره من الخطابات من ناحية ما يملكه من وسائل إقناع، ودراسة منطلقات الحجاج من أهم ما طرحه (برلمان)؛ فهي الركائز الفكرية التي يستند إليها الحجاج، والحجاج الموجّه إلى الجمهور العام انطلق في مجمله من (الحقائق)، و(الوقائع) مع تداخل أحيانا بين المنطلقات ولاسيما بين الوقائع والافتراضات، إلا أنّ السمة الغالبة هي انطلاق الحجاج من الحقائق؛ لأنّ نوع الجمهور ووظيفة الإمام (ع) اقتضيا ذلك النمط في الحجاج؛ فالإمام (حاكم) يطرح أفكاره المتعلقة ببناء الدولة فكريا، وسياسيا، واجتماعيا، والمخاطب جمهور الرعية الذي ينتظر أطروحات الإمام، ووجدنا الحجاج الموجّه إلى الجمهور العام ينطلق من الوقائع عندما يتعلق ببيان حال المناوئين، وكانت الخطبة الشقشقية في مقدمة النصوص الحجاجية العامة التي انطلقت من الوقائع ولاسيما فيما يتعلق بأحقّيته بالخلافة، واعتماد الوقائع في طرح الأفكار كان في المواضع التي تتعلق بدحض آراء الخصوم؛ فلجأ إلى

الانطلاق من الوقائع ليبيني عليها حجاجه فضلا عن الانطلاق من الافتراضات؛ لإقناعهم بخطأ ما يطرحه الآخرون .

٢٩. الحجاج في الخطاب الخاص انقسم على قسمين الأول كان موجها لجمهور الأعداء، والآخر للخاصة من أتباعه(ع) ، ومن الحجاج الموجّه إلى جمهور الأعداء ما وجّهه الإمام إلى الناكثين ومعاوية وفي كلا النمطين الحجاجيين انطلق الإمام من سلسلة وقائع مزجت بالحقائق لتكون أبلغ في إقناع الجمهور، ومن أهم النصوص الحجاجية الخاصة بأعداء الإمام ما توجّه به(ع) إلى الخوارج، وبنى على سلسلة من الافتراضات الممتزجة بالوقائع ردًا على أطروحة تكفير المسلمين التي طرحوها.

٣٠. ومن الحجاج الخاص باتباع الإمام ما توجّه به إلى الحسن وقد انطلق في مجمله من حقائق دينية تتعلق بالزهد والتقوى وغيرها؛ فالإمام علي بحجابه هذا طرح تلك المفاهيم التي أرادها أن تصل إلى الجمهور الكوني، وكان لشخصية الإمام الحسن(ع) أثر كبير في تلقي هذه المفاهيم ونقلها للجمهور، ومن أهم النصوص الحجاجية الموجّهة إلى جمهور خاص عهده لمالك الأشتر الذي انطلق فيه(ع) من مجموعة حقائق اجتماعية أو(سنن إلهية) تحكم حركة المجتمع وتنصف بالكونية ولا ترتبط بمجتمع دون آخر، وهذه النقطة تمثل الخلاف الجوهرى بين حجاج الإمام الحسن، وحجاج الأشتر؛ فالأول انطلق من حقائق دينية ترتبط بعلاقة الإنسان بربه بخلاف الثاني فهو يتعلق بالسنن الإلهية التي تحكم المجتمع، وصفات الحكم العادل، وما يؤدي إليه الظلم من ضعف الحكم وزواله فضلا عن انهيار المجتمعات؛ فالخطابان الحجاجيان وإن انطلقا من(الحقائق) إلا أنّ نمط تلك الحقائق في كلّ منهما يختلف عن الآخر.

٣١. لم تغفل دراسة المنطلقات الحجاجية الوقوف على أهم العناصر اللغوية في الخطاب الحجاجي؛ فقد تمّت الإشارة إلى بعض الروابط الحجاجية، وتوظيف بعض الألفاظ بدلالات معينة بما يخدم عملية الحجاج، ومن أهم أنماط التداخل بين وظيفة أدوات اللغة والمنطلقات الحجاجية نشوء الافتراضات عن طريق تركيب الشرط، وقد استعملت الافتراضات في مواضع متعددة من حجاجه(ع) ولاسيما حجاج جمهور الأعداء.

